

اللغة والمجتمع الإنساني

أحمد عبد الرقيب السامي

مشيخة جامعة الأزهر

يلجأ الإنسان الى لغته بمفرداتها وقواعدها يستعين بها ، يضع لهذه المعاني الفاظا او ينقل الفاظا من معانيها التي وضعت لها ، الى هذه المعاني الجديدة لتدل عليها فان لم يجد الإنسان في لغته ما يسعفه لجأ الى الاقتراض من لغات اخرى وقد يصقل ما يقترض بمصقل لغته لينتظم فيها وكأنه منها ، ولا يقتصر الامر على الالفاظ بل يمتدداها الى الاساليب فهي الاخرى تنمو وتتطور ، فاذا بأساليب لا تعرفها اللغة في زمانها السابق تدخل في زمان لاحق ، كل ذلك لان حياة الإنسان تنمو وتتطور واللغة أداة ووسيلة فلا بد لها من ان تسير تطور الإنسان والا ماتت لان حياتها بوقاها .

والذي يرجع منا الى صورته وهو طفل ، وصورته وهو شيخ طامن في السن ، وصورته وهو شاب او صبي ، او كهل ، يرى التغير والتبدل الذي اصاب كيانه واضحا فيما تنطق به الصور ، ولكن الإنسان لا يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل بل يلحظ نفسه وهو في يومه ، ويلقى في ذهنه من أمسه بمضمه لا كله ، واللغات شأنها شأن الإنسان : فهي تتطور وتتغير وتبدل وكل هذا يحدث في البنية اللغوية في الامس الغابر واليوم المائل .

اللغات هي : مجموعة من الرموز الاصطلاحية من حيث المفردات ، ومجموعة من القواعد النحوية الاتفاقية من حيث ضبط تلك المفردات . فهي لهذا لا تخضع لمنطق حتمي عام ، لانها اصطلاحية اتفاقية تقليدية موروثية او بتعبير آخر : ان اللغة من الامور الاعتبارية والامور الاعتبارية لا يشترط فيها ان تكون عامة بين الناس جميعا ، الا اذا اتفقوا على ما هو معتبر ، اما اذا فقد عنصر الاتفاق اختلف الناس فيما هو معتبر .

وحيث ان اللغة من الامور الاصطلاحية الاتفاقية التقليدية غير المتفق عليها بين الناس ، لهذا اختلفت اللغات فكان لكل لغة مفرداتها الخاصة بها ، وقواعدها ونظمها ، واللغة لشدة التأثير بها والتطبع عليها تبدو لتكلمها وكأنها من الامور الطبيعية ، ويبدو ما يخالفها شاذا غريبا لا يقبلونه الا في حدود معينة (1) .

النمو والتطور :

حياة الإنسان لا تستقر على حال : علومه تتطور وافكاره تتسع وحضارته تتقدم وحياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي الاخرى تتطور وتتقدم وتتمدد ، وهذا يعني انه يجد في حياة الإنسان الجديد من المعاني التي تتطلب وضع الفاظ لها . لهذا

وعمر اللغة لا يقاس بعمر الانسان ، اذ منها ما بين مولدها ومصرنا ، المئات من السنين فنصفها بأنها حديثة وما هي بالحديثة ، واخرى ما بين مولدها ومصرنا الالوف من السنين ونصفها بأنها قديمة ، لاننا اذا رجعنا الى اصولها ، او الى اصل الاصول ، كان عمر اللغة المئات من آلاف السنين بل الملايين منها ، فهل يمكن ان يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل في هذا الامتداد الزماني؟ الحقيقة لا ، اما لماذا ؟ فلاسباب :

ان اللغة الام لم تخلف لنا من الآثار ما يدل عليها ، ويتطور الانسان تطورت لفته الى لغات وكان التطور تدريجيا فنسي الانسان امس لفته وعاش حاضرها ، فانقرض ما انقرض وعفى الزمن على ما انقرض ، فنسيته الاجيال ، اما بالنسبة لاصول لغات هالنا الحديث فالتى ولدتها ام وكانت ولادتها حديثة . عرف اصلها اي امها كاللغات المولودة من اللاتينية ، اما ما كانت ولادتها قديمة فقد نسيته امها ومن اللغات ما دونت مفرداتها وقواعدها ونظمها اللغوية فى الاسفار ومنها ما خلف اسمها آثارا فامكن ان نشين بعض - لا كل - صور تطبيقاتها وتغيرها وتبدلها ومنها ، ما لم يدون فى الاسفار ولم يخلف اسمها الآثار فلا نعرف عنها الا صورتها الحاضرة ، ان لم تكن قد انقرضت ، ونعود الى لغات العالم التى تحتفظ بصور تغيرها وتبدلها وتطورها ونسال هل تعطى هذه الصور واقعا يطابق واقع اللغة وهى تتطور وتتغير وتتبدل فى الامتداد الزماني لهذا التطور والتبدل ؟.

الحقيقة لا : لان هذه الصور نسبية تماما كصورة الشيء لا تعني انها حقيقة الشيء بكل كيانه ومقوماته وصفاته ، فكمن من الالفاظ بادت ، وكمن من الاساليب عفى عليها الزمن ، وكمن من القواعد والنظم لم تصل اليها اجهزة المصور اللغوي فانساها الزمن .

وسؤال آخر يقفز الى الذهن ويتطلب الجواب :

ما هي اسباب النمو والتطور والتبدل والتغير والانقراض فى اللغات ؟ والجواب على ذلك اننا نجد اهم تلك الاسباب فيما يأتى :

1 - النمو والتطور والتغير والتبدل فى حياة الانسان نفسه وهذا يدفعه الى ان يضع لما يجد من جديد الالفاظ واساليب ونظما لغوية .

2 - نقل الالفاظ الموضوعية للمعاني ، فتطاول الزمان بدعو الى وضع الفاظ جديدة .

3 - من المعاني ما يرتبط بمصر من المصور فاذا انقرض المصور لا تكون هذه المعاني من التراث الفكري والحضاري للجيل اللاحق فتهمل ثم تنسى باهمال الفاظها .

4 - وعدم وفاء اللغة بحاجة الانسان الى التعبير والتفاهم وحفظ ونقل وتخليد تراثه الفكري والادبي وازاء ذلك يضطر الانسان الى ان يغير ويبدل او يهجر لفته .

5 - التحريف والتغيير والتبدل فى اللغة قد يستقر فى دلالاته فيخرج الاصيل حتى ينسى .

6 - ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية اتفافية غير مستقرة لهذا فقد تلد لغات او لهجات ، وقد تستقر هذه اللغات واللهجات المولدة وتهجر اللغة الام .

7 - تسرب الدخيل والمولد الى اللغة مع عدم الحاجة اليهما وبمرور الزمان قد يتغلب الدخيل والمولد على الاصيل .

8 - تجاوز الام واختلاط الشعوب ، سبب من اسباب تطور اللغة ونموها فتتعرض اللغة من لغات الامم والشعوب ما تقتضى منا هو ليس موجودا فيها .

9 - تعرض الامم للغزوات والنكبات يعرض احيانا الامم المغلوبة الى فقدان لغتها عندما تفرض الامم الغالبة لغتها عليها ، او تتأثر لغة الامم المغلوبة بلغة الامم الغالبة .

10 - انقراض الاسم والشعوب يؤدي الى انقراض لغتها لان اللغات ترتبط بمكلمها فاذا انقرضوا انقرضت .

11 - تشتت الامة والشعب يؤدي الى تآثر لغتها او لفته بلغات الامم المخالطة مما يؤدي الى مسخ لغة الامة المشتتة .

12 - بعض اللغات تمتاز بسهولة قواعدها ومرونة اساليبها ، وهذا قد يدفع بعض الامم الى هجر اناتها اذا كانت قواعدها واساليبها شديدة التعميد .

وذاتيتها ، ويتكلمها الملايين ، وهذا هو الذي يدعوننا الى التساؤل ما هي المقاييس التي يقاس بها كون اللغة حية او ميتة ؟

مما يجاب به على هذا التساؤل : ان العلماء يختلفون في المقاييس التي تعتبر اللغة : لغة حية والاختلاف اسباب : فمن العلماء من يعتبر المجتمع هو المقياس ، فاللغة التي يرتضيها المجتمع بمفرداتها وقواعدها واساليبها ونظمها ، هي اللغة الحية لان اللغة كما عرفها بعض الباحثين هي وسيلة للتعبير والتفاهم وليست غاية ، وللمجتمع ان يختار الوسيلة التي يرتضيها ، ويضيف العلماء الى ما سبق شرطا آخر اذا توفر في اللغة باضافة الى ارتضاء المجتمع كانت اللغة لغة حية ، وهي ان تكون اللغة سهلة في قواعدها مرنة في اساليبها ونظمها وعلى اساس هذا المقياس : للمجتمع ان يغير ويطور ويبدل في اللغة ما شاء الا في حدود ضيقة كان يجري تأليف وترتيب الكلمات وفق نظام ثابت ليؤدي الكلام المؤلف منها معناه العام .

ان الحياة تتطور وفي تطور مستمر، واللغة ينبغي لها ان تسير هذا ، وهي وسيلة والمجتمع ان يختار تلك الوسيلة ولا ينبغي لتلك الوسيلة ان تقيد المجتمع وتقف حجر عثرة امام تطوره واحتياجاته .

وبعض العلماء لا يعتبر المجتمع هو المقياس بل يعتبر وفاء اللغة بحاجة الانسان الى التعبير والتفاهم وحفظ ونقل وتخليد آثاره الادبية والعلمية والفكرية والمقائدية هو المقياس .

فاللغة التي تفي بذلك لغة حية ولا يسمح هؤلاء العلماء لامهم ان يغيروا ويبدلوا ويطوروا في لغتهم ، كيفما شاءوا ، بل لابد ان يكون التطور والتغيير في اللغة يجري على اساس من قواعدها واساليبها اللازمة الابحاث ، وهؤلاء العلماء يربطون بين لغتهم وبين تراثهم العلمي والفكري والحضاري ، ويربطون بينها وبين عقائدهم ونظمهم وبينها وبين مشاهيرهم واهدافهم في الحياة (2) .

نشأة اللغة الانسانية :

قد كثر القائلون والباحثون في نشأة اللغة الانسانية واصلا منذ اقدم العصور ولا زال علماء اللغات يدرسون ويبحثون ، ولقد هاجها فلاسفة

نواحي التطور والتغير اللغوي :

1 - التبدل الصوتي للحرف والكلمة : وذلك بان يتغير صوت الحرف وعلى سبيل المثال حرف الجيم العربي يلفظ في لبنان وسوريا بصوت يختلف عنه في مصر ، وفيهما منه في العراق ، وكذلك في مصر نفسها حرف الجيم يلفظ في الصعيد بصوت يختلف عنه في القاهرة ، وكذا حرف القاف والصاد ، او ان يتغير صوت الوحدة اللغوية .

2 - توسيع القاعدة اللغوية وذلك بان يخضع اهل اللسان ما يقترضونه لقواعدهم اللغوية فيجرون عليه ما تجري عليه قاعدة لغتهم او توسيع القاعدة لتشمل الشاذ غير الخاضع لها .

3 - اقتراض المفردات : وذلك حين تعجز قواعد اللغة من الوفاء بوضع مفردات جديدة او لا يكون ذلك من عجز وانما تكون المفردات الاجنبية قد استقرت بحيث لا يمكن احلال مفردات لغوية موضوعة بموجب القواعد اللغوية للغة .

4 - استعارة اساليب او تراكيب لا تعرفها اللغة : ومن امثلة ذلك في اللغة العربية : ذر الرماد في العيون ، وهاش ستة عشر ربيعا ، ووضع المسألة على بساط البحث ، ولا جديد تحت الشمس ، وساد الامن في البلاد .

ومن امثلة ذلك ايضا ، الاصطلاحات الفنية والادارية : كهيئة المحكمة وتشكيل المحاكم ، وانعقدت المحاكم ، وتعميرة الرسوم ، واللاسلكي ، والانهائي .

5 - تبدلات نرفية مختلفة : كالنقل والارتجال والاستعمال المجازي والنحت على غير قياس او سماع .

مقاييس اللغة الحية :

من اللغات ما توصف بانها : حية ، ومنها ما توصف بانها : ميتة ، والميتة هي اللغة التي تشتت الشعب الذي يتكلمها فخالط اما وشعوبا مختلفة اللغات وكان ان مسخت لغة الشعب المشتت ، وقد يطلق وصف الميتة على لغات تحتفظ بشخصيتها

اليونان وعلماء اللغة العربية والاسلام واهتم بها الباحثون المحدثون من الاوربيين ومشى على آثارهم كثير ممن اخذ عنهم ، وخاصة العرب منذ القرن التاسع حتى اليوم وقد اختلفت وجهات النظر ونتج من ذلك نظريات كثيرة منها : ان اللغة الهام وتعليم من الله : بمعنى ان الواضع للغات هو الله سبحانه وتعالى وقد بلغها الانسان بطريق الوحي والالهام او بايداع ذلك فى طباعه .

1 - وذهب الى هذا الراي جماعة من المفسرين وقد حكى ابن جنى من بعض المفسرين فى تفسير الآية « وعلم آدم الاسماء كلها » ان الله سبحانه علم آدم اسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومانية ، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم ان ولده تفرقوا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه ، واضمحل عما سواها لبعد عهدهم بها ، واذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده والانطواء على القول به (3) .

ومن ابن عباس انه كان يقول : علمه الاسماء كلها وهي هذه الاسماء التى يتعارفها الناس من دابة وارض وسهل وجبل وجمل وحمار واشياء ذلك من الاسم وغيرها ، ومن مجاهد انه قال : علمه اسم كل شيء ، وقال غيرهما : انما علمه اسماء الملائكة ، وقال آخرون : علمه اسماء ذريته اجمعين .

2 - ومن ذهب هذا المذهب : الاصوليون ، قال الامدي حاكيا آراء العلماء فى ذلك: اختلف الاصوليون فيه، فذهب الاشعري واهل الظاهر وجماعة من الفقهاء الى ان الواضع هو الله تعالى ، ووضعه لنا متلقى من جهة التوقيف اما بالوحي او بان يخلق الله الاصوات والحروف ويسمعا الواحد والجماعة ويخلق له اولهم: العلم الضروري بانها قصدت للدلالة على المعاني ، محتجين على ذلك بآيات منها قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانه لا علم لنا الا ما علمتنا » وهذا يدل على ان آدم والملائكة لا يعلمون الا بتعليم الله تعالى ، ومنها قوله تعالى : « اقرا باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق، اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم

يعلم » . واللغات داخله فى هذه المعلومات ومنها قوله تعالى : « ان هي الا اسماء سميتها » انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان » ذمهم على تسمية بعض الاشياء من غير توقيف ، وقوله تعالى : « ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف السننكم » المراد به اللغات لا نفس اختلاف هياكل الجوارح من الاسنة . لان اختلاف اللغات ابلغ فى مقصود الآية (4) .

3 - وذهب طائفة من علماء اللغة الى مثل ما ذهب المفسرون والاصوليون حكى ابن جنى فى الخصائص من استاذه ابي علي الفارسي المتوفى سنة 377 هـ قال : ان ابا علي رحمه الله قال لي يوما هي من عند الله واحتج بقوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » (5) .

وايد ابن جنى هذا الراي فقد جاء عنه فى الخصائص : « واعلم فيما بعد اننى على تقادم الوقت دائم التنقيص والبحث عن هذا الموضوع ، فاجد الدوامي والخوالج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التفول على فكري ، وذلك اننى اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقّة ما يملك علي جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به امام غلوة السحر ، فمن ذلك ما نبه عليه اصحابنا ، ومنه ما حدوته على امثلتهم فعرفت بشتابه وانقياده ، وبعد مراميه ، وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديره منه ، ولطف ما اسعدوا به ، وانضاف الى ذلك وارد الاخبار الماثورة بانها من عند الله عز وجل فتوى فى نفسي اعتقاد كونها من الله سبحانه وانها وحي (6) .

4 - وقال ابو الحسين احمد بن فارس : ان لغة العرب توقيف ، واستدل بآية « وعلم آدم الاسماء كلها » وتفسير ابن عباس ومجاهد وغيرهما . ولكن ابو الحسين بعد ان اطلق كلامه هذا الاطلاق رجح فخصص ما عمم فقال : ولعل ظانا يظن ان اللغة التى دللنا على انها توقيف انما جاءت جملة واحدة وفى زمان واحد وليس الامر كذلك ، بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء ان يعلمه اياه مما احتاج اليه فى زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علم بعد آدم عليه السلام من الانبياء نبيا نبيا ما شاء ان يعلمه حتى انتهى الامر الى نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فاتاه الله من ذلك ما لم يؤته احدا من قبله (7) .

الحسين احمد بن فارس فهو تقليد لائمة الدين ، وقد كان الشيخ محافظا شديد المحافظة وقد عدل كلامه فضيق دائرة الدعوى ، واما انكاره على العرب انهم اجتمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه فيكفي في رده ما نقله غير واحد من ائمة اللغويين من ان رؤية الحجاج وجريس وابن احمر الباهلي انفرد كل منهم بالفاظ لم يقلها غيره من العرب ، وانهم كانوا يرتجلون اللغة احيانا فهذا دليل على استمرار نمو اللغة حتى العصر الاموي والى انقضاء عصر الفصاحة العربية قبل ان يسيل سيل المجمة وتفسد السلائق باختلاط العرب بغيرهم الاختلاط الاكبر في العصر العباسي ، وليست الواضحة والاصلاح والتواطؤ الذي يريده القائلون به، الا ان يخترع اللفظ مخترع فيقبله منه الناس ويستعملوه .

وخلاصة ما تقدم : ان القائلين بان اصل اللغة توقيف ووحى يموزهم الدليل العلمي لا الدينى ولم نجد هذا الدليل فيما بين ايديهم من فروض واحتمالات .

وقد ذهب هذا المذهب من اليونانيين قديما الفيلسوف « هيراقليط » ومن الاديبيين المحدثين طائفة على راسهم الاب « لامي » في كتابه « فن الكلام » ويستند الى نصي الفقرتين 19، 20 من الاصحاح الثاني من سفر التكوين وهما « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول ، وجميع طيور السماء ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذي يرضه له الانسان فوضع آدم اسما لجميع الحيوانات الستائة ولطيور السماء ودواب الحقول » .

وهذا الدليل فوق انه دليل ديني ليس فيه شيء من الاستدلال على اصل الدعوى وقد بان من هذا ومما تقدم ان هذا المذهب مجرد دعوى لا سند لها غير الآلة الثقيلة التي ليست نصا في الموضوع (10)

ولكن بعض العلماء توصل الى دليل عقلي ينهض قويا ليدعم الادلة الثقيلة وهذا الدليل : ان الانسان الاول لما كان نبيا فهو لابد له لكي يفهم ما يوحى اليه ولا بلاغ رسالته من لغة يستطيع بها تفهم وابلاغ رسالته ، والا تعذر عليه التبليغ وتفهم ما يوحى ، فالله سبحانه لما خلق ابا البشر واصل الخليقة آدم عليه السلام واسكنه وزوجه الجنة ، وأوحى اليه هو وزوجته ان يأكلا من الجنة حيث شاءا وان لا يقربا

ثم قال فان تعمل لذلك اليوم متمم ، وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده ، ولقد بلغنا من ابي الاسود ان امرا كلمه ببعض ما انكره ابو الاسود . فسأله ابو الاسود عنه فقال : هذه لغة لم تبلغك . فقال ابو الاسود يا ابن اخي لا خير لك فيما لم يبلغني .

وجاء انه لم يبلغنا ان قوما من العرب في زمان يقارب زماننا اجتمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه (8) .

وقد كان في الصحابة رضي الله تعالى عنهم وهم البلغاء والفصحاء من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به وما علمناهم اصطلاحوا على اختراع لغة او احداث لفظة لم تتقدمهم (9) .

قال الاستاذ مصطفى السقا بعد ان اورد اقوال اصحاب المذهب السابق : والذي يلوح لي ان اكثر ما استدلل به اصحاب هذا المذهب ادلة دينية مع ان البحث نظري عقلي ، لا ديني فينبغي ان يستبعد منه الاستدلال بالآيات والاحاديث ونحوها ، على ان الآية الاولى التي هي معتمد القوم في الاستدلال ليست نصا في الموضوع وانما هي من قبيل الظاهر الذي يحتمل اكثر من وجه فقد يمكن تاويلها بان الله اقدر آدم على ان واضع عليها : قال ابن جنى في الخصائص بعد ان اورد الآية وهذا لا يتناول موضع الخلاف : وذلك انه قد يجوز ان يكون تاويله : اقدر آدم على ان واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة فاذا كان ذلك محتملا وغير مستنكر سقط الاستدلال به وقد كان ابو هاشم رحمه الله ايضا قال به في بعض كلامه .

وليس يعنينا بعد ذلك من الادلة التي استدلو بها غير كلام ابن جنى وخلاصته انه رآى في احكام اللغة ودقة تنظيمها ما جعله يعتقد ان ذلك الاحكام لا يتأتى من غير الله ، وهذا الدليل ان لم يكن صريحا في التدين فهو مقنع بقناع الدين . فان كثيرا من اعمال القدماء كالاغرام وغيرها آية في دقة الصنع فهل نقول ان صناعتها هو الله من اجل اتقانها . على ان ابن جنى نفسه بعد ان ذكر كلامه الذي سبقناه ، لم يلبث ان شعر بما فيه من ضعف فاستدرك على نفسه بقوله ، كذلك لا ننكر ان يكون الله قد خلق من قبلنا وان بعد مداه منا من الطف منا اذهانا واسرع خواطر واجرا حنانا فاقف بين الخليتين حسيرا واكاثرها فانكفيء مكتورا ، وان خطر خاطر فيما بعد ، يملق الكف باحدى الجهتين ويكفها من صاحبتها . قال الاستاذ مصطفى السقا : اما صدر كلام ابي

شجرة معينة وغير ذلك مما خاطبهم به . فلا بد من غير شك انه علمهما معاني ما خاطبهما به وما اوحى به اليهما . بل الظاهر انه سبحانه علمهما ما يتخاطبان به فيما بينهما او مع الملائكة ، وذلك لاتمام النعمة عليهما في الجنة .

نعم من الجائز ان الله اودع في آدم وذريته الاولين قوة توسيع اللغة الاصلية ثم تفرعت منها لغات بعد ذلك حسب التكتلات البشرية في اقطار المعمورة فكان لكل كتلة منهم لغتها ولهجتها ونفتمتها الخاصة « 11 » .

المذهب الثاني :

ان اللغة تواطؤ واصطلاح : وخلاصة هذا المذهب ان الواضع للغة هو الانسان وان وضعه لها ، كان على مراحل ، ولقد ذهب الى هذا المذهب اكثر اهل النظر ، كما قال ابن جنى في الخصائص . هذا موضع محوج الى فضل تأمل ، غير ان اكثر اهل النظر على ان اللغة انما هي تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف « 12 » .

ولعل المراد باهل النظر في كلام ابن جنى المتكلمون عامة والمعتزلة منهم خاصة ، وكان ابن جنى واستاذة ابو علي الفارسي منهم كما ذكر السيوطي في كتاب الزهر .

1 - حكى ابو الحسن علي بن محمد الامدي في كتاب « الاحكام » ان البهشية وجماعة من المتكلمين ذهبوا : الى ان ذلك من وضع اهل اللغات واصطلاحهم وان واحدا او جماعة انبعثت دأيمته او دأيمتهم الى وضع هذه الالفاظ بازاء معانيها ثم حصل تعريف الباقيين بالاشارة والتكرار كما يفعل الوالد بالولد الرضيع وكما يعرف الاخرس ما في ضميره بالاشارة والتكرار مرة بعد اخرى محتجين على ذلك بقوله تعالى : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » وهذا دليل على تقدم اللغة على البعثة والتوقيف (13) .

2 - وزاد ابن جنى على هذا المذهب توضيحا بقوله : ذهبوا الى ان اصل اللغة لا بد فيه من الواضحة وذلك كان يجتمع حكيمان او ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا الى الابانة من الاشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد

سمة ولفظا ، فاذا ذكر حرف به ما مسماه ، ليمتاز عن غيره ، وليفني بذكره عن احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك اقرب واخف واسهل ، من تكلف احضاره لبلوغ الغرض في ابانة حاله ، بل قد يحتاج في كثير من الاحوال الى ذكر ما لا يمكن احضاره ولا ادناؤه كالفاني . وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد ، كيف يكون ذلك لو جاز وغير هذا مما هو جار في الاستحالة والبعد مجراه ، فكانهم جادوا الى واحد من بني آدم فاوماوا اليه وقالوا انسان انسان فاني وقت سمع هذا اللفظ علم ان المراد به هو الضرب من المخلوق ، وان ارادوا سمة منه او يده اشاروا الى ذلك فقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم او نحو ذلك ، فتمت سمعت اللفظة من هذا حرف معناها وهلم جرا ، فيما سوى هذا من الاسماء والافعال والحروف ، ثم لك بعد ذلك ان تنقل هذه الواضحة الى غيرها ، فتقول الذي اسمه انسان فليجعل مكانه مرد والذي اسمه راس فليجعل مكانه سر ، وعلى هذا بقية الكلام ، وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية فوقعت الواضحة عليها لجاز ان تنقل ويولد منها لغات كثيرة من الرومية والرنجية وغيرهما وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الاسماء كالنجار والصانع والحائك والبناء وكذلك الملاح . قالوا : ولكن لا بد لاولها من ان يكون متواضعا بالمشاهدة والایماء « 14 » .

وعلى ذلك اختلفت اقلام ذوي اللغات ، كما اختلفت انفس الاصوات المرببة على مذاهبهم في المواضع ، وتوسط قوم بين المذهبين فذهب ابو اسحاق الاسفرايني الى ان القدر الذي يدهو به الانسان غيره الى التواضع بالتوقيف ، والا فلو كان بالاصلاح فالاصلاح عليه متوقف على ما يدهو به الانسان غيره ، الى الاصطلاح على ذلك الامر ، فان كان بالاصطلاح لزم التسلسل وهو ممنوع ، فلم يبق غير التوقيف ، وجوز حصول ما عدا ذلك بكل واحد من الطريقتين « 15 » .

وخلاصة الرد على اصحاب هذا المذهب في ان قولهم : باجتماع حكيمين او ثلاثة فصاعدا ، ليضعوا لكل شيء سمة ولفظا ، ليس الا مجرد خيال وحس وظن وان الظن لا يفني من الحق شيئا ، ذلك الى ان القول بان الانسان وضع من اول الامر كلمات ذات مقاطع مركبة يجاني طبائع الاشياء اذ ان التسدرج

والحركات ، حتى تكاثرت فجعل يحكي الاصوات التي يسمعا ، فكان اذا اراد ان يشير الى الغراب قال: غاق ولما وجد حكاية الاصوات هذه بقي بالمقصود اعتمد عليها فحصلت منها اصوات اللفظة ثم طرأ عليها التركيب والنحت والحذف والتغيير وما شاكل ، فتألفت سائر الفاظ اللفظة من كل خاطر يخطر في النفس « 20 » .

وبمقتضى هذا المذهب كان الانسان اذا اراد استحضار معنى الحصان عبر عنه بصهيله « حم حم » او معنى الكلب عبر عنه بمحاكاة نباحه « عومو » وهكذا واذا اراد الدلالة على معنى قطع الفصن او قصفه نطق بالصوت « قط او قص » او معنى سقوط الحجر على الارض نطق بالصوت « طق » لما بين هذه الاصوات ومعانيها من المناسبة وقد قال الخليل : كانهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا « صر » وتوهّموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا « صرصر » ومن الطبيعي ان يكون التفاهم في هذا الطور الاول بكلمات متقطعة لا بجمل ، وان هذه الكلمات كانت حكاية لاصوات « الاشياء او حكاية افعال ، اما الحروف التي تربط بين الكلمات في الجمل فلم تكن نشأت بعد « 12 » .

فانت ترى ان اللفظة نشأت بمحاكاة الانسان لاصوات الطبيعة وكانت المحاكاة في اول امرها مضموية اي لم يقصد بها الاصوات الحاكية : التعبير من المعاني المحكي منها بها للاتصال بالغير ، ان الوظيفة الاجتماعية للغة لم تبرز في اول الامر ، ثم وجد الانسان ان هذه الوسيلة مثمرة ونافعة وسهلة في دلالتها على المعاني ، لهذا أصبح يطلق على الاشياء اصواتا هي حكاية لاصواتها الصادرة عنها للدلالة عليها وللاتصال بالغير ، فمعنى هذا ان استعمال الانسان لاصوات الحاكية أصبح استعمالا شعوريا اراديا هادفا ، وهنا يبرز العنصر الاجتماعي للغة : الرموز الصوتية ، ثم طرأ على الاصوات الحاكية الدالة : التركيب والنحت والحذف والزيادة والقلب والابدال ليدل الانسان على معاني جديدة باصوات متمايزة وبعد ان التفث الى اهمية وفائدة الرموز الصوتية في الدلالة على المعاني المصوتة وغير المصوتة ، المادية وغير المادية ، وكان هذا على مراحل ثم ان التصرف في الاصوات الحاكية بالكيفيات المتقدمة يختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات

والترقي من البسيط الى المركب ، هو القانون الملحوظ في نشأة الظواهر الاجتماعية التي من اهمها ظاهرة اللفظة كما يلاحظ ذلك في نشأة لغة الطفل وتدرجها شيئا فشيئا .

واما الاستدلال بالآية « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » فليس فيه دليل ، لانه يجوز ان يكون التوقيف الذي قبل التواضع بالوحي من غير واسطة اللفظة ، على اننا نقول ما قلناه آنفا ان الاستدلال بالنصوص الدينية في مقام البحث العلمي لا يجوز ، ولذلك كله توقف جماعة من العلماء عن القطع باحد المذهبين فذهب القاضي : ابو بكر الباقلاني وغيره من اهل التحقيق الى ان كل واحد من هذه المذاهب ممكن بحيث لو فرض وقوعه لم يلزم منه محال لذاته واما وقوع البعض فليس عليه دليل قاطع ، والظنون متعارضة يمنع معها المصير الى التمييز ، ولذلك ايضا قال الامدي والحق ان يقال ان كان المطلوب في هذه المسألة يقين الوقوع لبعض هذه المذاهب فالحق ما قاله ابو بكر الباقلاني اذ لا يقين من شيء منها « 16 » .

المذهب الثالث :

ان اللفظة نشأت من الاصوات ويرى هذا ، العلماء الاوربيون المحدثون وسبق اليه علماء اللفظة العربية قال ابن جني في الخصائص : وذهب بعضهم الى ان اصل اللفظة كلها انما هو من الاصوات السموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ، ونبيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الطي - صوت تبس الأطباء عند السفاد - ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عند ذلك فيما بعد « 17 » .

ويقول ابن جني : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل « 18 » .

ويرى الاب « انستاس ماري الكرملي » نفس هذا الرأي ويقول : الكلم وضعت في اول امرها على هجاء واحد متحرك فساكن محاكاة لاصوات الطبيعة « 19 » .

وهذا المذهب قال به جماعة من المتأخرين مثل : « آدم سميث » و « روكر ستيورت » وتقل عنهم ان الانسان كان يعبر عما في ضميره بالاشعارات

الاجتماعية ثم اقرت هذه الاصوات المتصرف بها مع الزمن ، فبعد كثير منها من اصله وهو الصوت الذي حاكى به الانسان الاصوات الطبيعية وهكذا نشأت اللغة «22» .

ويستدل اصحاب هذا المذهب على صحته :

1 - بأنه اقرب المذاهب الى البساطة التي تقتضيها حياة الانسان البدائي وتقتضي التدرج والتطور الذي تقتضي به طبائع الاشياء والذي يلحظ في نشوء الظواهر الاجتماعية عامة .

2 - وبأنه توجد مناسبة ملحوظة بين الاصوات وما تدل عليه من معنى وهذا امر ظاهر في لغات الامم الاولى .

3 - وبأنه شبيه بنشأة لغة الطفل التي تتدرج من الاصوات الساذجة المستطيلة الى الاصوات المقطعة، ثم يتدرج الى الكلمات ذات المقاطع المركبة اذا كملت اعضاء النطق عنده .

ولا يرد على هذا المذهب من النقد ما ورد من المذاهب الاخرى السابقة ولذلك كان اقرب المذاهب الى العقل ون لم يوصل الى اليقين في نشأة اللغات وقد ارتضاه ابن جني في كتابه الخصائص حين قال : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل .

والاصوات جمع صوت : وهو الجرس الذي ينتقل بالهواء الى حاسة السمع ، وتنقسم هذه الاصوات بحسب المصدر الى الذي تنبعث منه الى تسمين : الاول الاصوات الطبيعية كصوت الريح او الرعد او النار، او جري المياه وانصبابها من علو الى اسفل ، وكاصوات الحيوان والطير والاصوات التي تسمع من الانسان في احوال الانفعال كالانين والصراخ والعويل وكاصوات الفرح والطرب ونحو ذلك .

والثاني : الاصوات غير الطبيعية كاصوات الحركات والانفعال التي يفعلها الانسان واصوت الآلات والادوات التي يستعملها كازبز الطائرات وجمعجة الطواحين وصوت المنشار في الخشب ووسوسة النقود والحلي وصرير الابواب وصلصة الاجراس وما اشبه ذلك .

ويلحق بهذا القسم الاصوات البدائية التي اخترعها لدعاء الحيوان او لرجوه ، وتنقسم الاصوات من حيث صفاتها الى اصوات ساذجة وهي التي تمتد في استطالة بدون تقطيع كصوت زمارة الانذار عند انتهاء الفارات وكصفير الحيوان او الانسان من غير ترجيع ولا تكرير. وهذا النوع ليس موضوع بحث اللغويين، والى اصوات مقطعة كالحروف التي يلفظها الانسان بالاعتماد على المقاطع والمخارج وكالاصوات الطبيعية التي سبقت الإشارة إليها فانها وان صدرت عن اشياء لا مقاطع لها كمقاطع الانسان فقد تمكن حكايتها باللفاظ اللغوية الانسانية ذات المقاطع والحروف جرت عليها احكامها «23» .

وهناك من العلماء من يقرر ان اصل اللغة الاصوات الانفعالية للانسان التي كان يطلقها الانسان في ظروف حياته البدائية وهي تختلف باختلاف حالاته النفسية والجسمية وباختلاف الظروف المحيطة به وكانت تلك الاصوات في بدايتها عفوية لم يقصد منها الاتصال بالغير بل هي مجرد اصوات تصدر عنه كتعبير عن حالة من حالاته الانفعالية ، ولما اربطت هذه الاصوات بتلك الحالات الانفعالية نتيجة تكرارها عند تعرضه لها انتبه الى اهمية هذه الاصوات وفائدتها فاخذ يستعملها للاتصال بالغير وبهذا اصبح الصوت يخدم غرضا اجتماعيا وكان ان وسع مجال الصوت في الدلالة على الاشياء تدريجيا وهكذا نشأت اللغة «24» .

المذهب الرابع :

يقرر كثير من العلماء المحدثين ان اصل اللغة يرجع الى جذور نفسية وفي هذا عدة نظريات :

1 - اصل اللغة رغبة الانسان في ان يرى الواقع مرموزا اليه وفي ذلك نجد الاستاذ سابر Sapir وهو من المشتغلين بفلسفة اللغة لا يرى ان الحاجة الى التفاهم انشأت اللغة . بل يرى ان منشأها رغبة الانسان في ان يرى الواقع مرموزا اليه او معبرا عنه بالرموز . ثم اكتشف مصادفة ان ذلك خير وسيلة للتفاهم «25» .

2 - اصل اللغة التعبير عن الحالات الانفعالية .

3 - اصل اللغة التعبير عن المعاني الكامنة وفي هذا يقول «ماكس» وهو من اشهر من قال بهذه

وكان ان وسع من نطاقها وطورها لتخدم المراضه التي
يمكن ان تؤديها .

المذهب الخامس :

الاصل الاجتماعي وخلصته : ان اللغة نشأت
بظهور البلدة الاولى لتكوين المجتمع ، وان الانسان كان
مضطرا لان يفهم نبع الآخرين لاسباب ودوافع
كثيرة ، لهذا كان يطلق اصواتا في حالات مختلفة ،
ثم اكتسبت هذه الاصوات صفة التباين النسبي
حتى اصبحت لها دلالتها ، على معان معينة ، فاخذ
يستعملها للتعبير والاتصال بالآخرين لتحقيق غرض
ما ، فنشأة المجتمع هي سبب نشأة اللغة ، واللغة
هي التي جعلت للمجتمع البشري وجودا انسانيا .

النظرية في القرن الماضي 1865 م « في الانسان قوة من
شأنها التعبير عما في ضميره بكلمات ملفوظة فكان الفكر
اولما يجول في دماغه كأنه يقرع تلك القوة لتصون بالفاظ
يفهم الفكر منها ، وهذه الافات هي اصول اللغة ثم
تقلبت عليها اطوار التعبير والتركيب فتألفت مفردات
اللغة ، ولما تم الاستنباط درج عليها الاستعمال ، ولم
يبق لهذه القوة من حاجة ، فاهملت وتضعفت ولم
تعد تحس كما يضمف السمع والبصر لقلة
الاستعمال » 26 .

من هذا يتضح ان اللغة انما نشأت بسبب
عوامل ودوافع نفسية بحثة ، ثم وجد الانسان الاول
ان اللغة يمكن ان تحقق له فوائد كثيرة فانتبه لذلك

مراجع :

- 1 - انظر مجلة «النجم» العدد السادس من السنة الثانية ص 73 - العراق .
- 2 - المصدر السابق ص 85 - 86 .
- 3 - الخصائص لابن جني . الجزء الاول ص 39 - 40 مطبعة الهلال بمصر
- 4 - الاحكام في اصول الاحكام للامدي ، الجزء الاول ص 105
- 5 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 39
- 6 - المصدر نفسه ج 1 ص 45
- 7 - فقه اللغة للصاحب ص 5 - بيروت
- 8 - المصدر السابق ص 6
- 9 - نفس المصدر السابق ص 7
- 10 - مجلة «المعرفة» العدد 3 من السنة الاولى - المملكة العربية السعودية .
- 11 - مجلة «النجم» العدد السادس من السنة الثانية ص 38-40 - العراق .
- 12 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 39 .
- 13 - مجلة «المعرفة» السنة الاولى ، العدد 3 - السعودية .
- 14 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 41-42 .
- 15 - الاحكام في اصول الاحكام للامدي ج 1 ص 106
- 16 - مجلة «المعرفة» السعودية العدد 3 السنة الاولى .
- 17 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 44-45 .
- 18 - نفس المصدر السابق ص 45 .
- 19 - دراسات في فقه اللغة ص 155 - العراق (الدكتور صبحي العالم)
- 20 - معجم «متن اللغة» ج 1 ص 18 (الشيخ أحمد رضا) - العراق .
- 21 - مجلة المعرفة السعودية الجزء الثالث السنة الاولى .
- 22 - مجلة «النجم» العراقية العدد 6 من السنة الثانية ص 50-51 - العراق .
- 23 - مجلة «المعرفة» السعودية السنة الاولى الجزء الثالث .
- 24 - مجلة النجم العراقية العدد السادس ص 51 - العراق .
- 25 - اصول تدريس اللغة العربية ص 10 العراق .
- 26 - معجم متن اللغة ج 1 ص 19 . والزهر للسيوطي ج 1 ص 36 .